الأنساق الثقافية المضمرة في رواية
"كتيبة الخراب" لعبد الكريم جويطي، الباحثة زكية مجدوب –
جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهراز فاس، المغرب.

مقدمة:

تعج الساحة النقدية الأدبية بدراسات عدة تتباين في المنهج المعتمد في التحليل والدراسة ،أو إن شئت القول، قد تجد عملا أدبيا واحدا قتل بحثا بجميع الآليات الممكنة والمتاحة لتشريح النصوص كيفما كان جنسها. ففي العقود الأخيرة أصبحت المناهج النقدية ملكا مشاعا بين النقاد والدارسين. فانتشرت مناهج ومقاربات متعددة وطرق تحليل متباينة ، منها ما هو بنيوي، سميائي اجتماعي نفسي، انثربولوجي، كل منهج يعمل على الاستفادة مما سبقه وملأ ثغرات المنهج الذي قبله، حتى بزغ نجم الدراسات الثقافية في بريطانيا في ستينيات القرن الماضي عام 1964 كما أن "مصطلح الدراسات الثقافية ليس جديدا،حيث شرع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام brimingam في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية والتي تناولت وسائل الإعلام media والثقافة الشعبية popular culture والثقافات الدنيا، ، sub culture ; والمسائل الإيديولوجية ideological matters والأدب literatur ; "[1]

يمكن اعتبار الدراسات الثقافية بمثابة" ظاهرة كرنفالية ؛إذ تستمد وجودها من غيرها وتتشكل في حقل خاص من خلال الاستمداد المستمر، ليس غريبا أن تعرف الدراسات الثقافية نفسها بالعلاقة مع الدراسات الإثنية والأنثروبولوجية التي يلعب فيها مصطلح الثقافة دورا حاسما. والدراسات الثقافية تنظر إلى المفاهيم التقليدية، سواء في الحقول التي ارتبطت بها أو التي حدتها حتى يتسنى للدراسات الثقافية نفسها أن تفصح عن نفسها"[2]، وقد انبثق عنها ما عرف بالنقد الثقافي باعتباره من المناهج ما بعد البنيوية ،التي ظهرت بداية في أوروبا، ثم انتشرت في العالم بأسره باعتباره نقدا جديدا يتجاوز مقولات النقد الأدبي الذي يهتم بالبعد الجمالي إلى نقد ثقافي يولي الاهتمام ببنية النص الأدبي، من منظور النقد الثقافي لاستخراج الأنساق الثقافية المضمرة من النص من

[1]- أرثر أيزابر جر: النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر وفاء ابراهيم ورمضان بسطاوى، إصدارات المشروع القومي للترجمة ط1 سنة 2003، ص31

[2]- ميجان الرولي، د سعيد البازعي دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط3 ، 2002 ، ص 139

أنساق إيديولوجية سياسية و هوية ، صور الأنا والآخر و الذاكرة الثقافية، وغيرها من الموضوعات المتجددة داخل الحقل الثقافي.

ولقد عرفه الغذامي في كتابه"النقد الثقافي"بأنه "فرع من فروع النصوصي العام، معني بنقد النصوص الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه. ما هو غير رسمي ومؤسساتي وما هو كذلك، وما هو كذلك سواء بسواء، وهو بهذا المعنى يكشف لا الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي"[3] ،أما الناقد " أرثرأ يزابرجر" فيعرف النقد الثقافي بقوله: " النقد الثقافي كما أعتقد هو مهمة متداخلة مترابطة ومتجاورة متعددة. كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجلات مختلفة ويستخدمون أفكار ومفاهيم متنوعة، والتفكير الفلسفي وتحليل الوسائط، والنقد الثقافي الشعبي وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامات ونظرية التحليل النفسي،والنظرية الماركسية والأنتروبولوجية(...)ودراسات الاتصال(...) وغيرها من الوسائل التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة وحتى غير المعاصرة"[4]

بينما يرى كل من سعد البازعي وميجان الرويلي" أن النقد الثقافي كما يوحي اسمه نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها"[5]، فالنقد الثقافي يقف على كيفية إنتاج الأشكال الثقافية من قبل المؤسسات أو الأفراد وطريقة توزيعها و تلقيها، فلا يهتم بدراسة النص نفسه بل يستخرج أنساقه المضمرة المتخفية وراء سطوره "أي ما وراء النص وليس النص نفسه"[6] .

بذلك يعد النقد الثقافي بمثابة مقاربة متعددة الاختصاصات، تستكشف الأنساق والأنظمة الثقافية، وتجعل النص أو الخطاب وسيلة لفهم المكونات الثقافية المضمرة للأنساق الثقافية، وقد عرف الغذامي هذه الأخيرة بقوله : فالأنساق الثقافية أنساق

---

[3]- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي بيروت، ط3، 2005، ص20

[4]- نقلا عن أرثر أيزابرجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر وفاء ابراهيم، رمضان بسطاويس، المشروع القومي للترجمة القاهرة، ط1، 2003، ص30_ 31

[5]- ميجان الرويلي، سعيد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص305

[6]- علي شناوة ، سامر قحطان سليمان، النقد الفني دراسة في المفاهيم والتطبيقات، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2014،ص 151

تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائما وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي، المنطوي على هذا النوع من الأنساق وقد يكون ذلك في الأغاني، الأزياء أو الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات، والنكت، وكل هذه الوسائل هي حيل بلاغية جمالية تعتمد على المجاز ، وينطوي تحتها نسق ثقافي ونحن نستقبله لتوافقه السري وتواطئه مع نسق قديم منغرس فينا"[7].

بما أن النقد الثقافي يرتكز على مصطلح المضمر، فإن كل ثقافة تحمل أنساقا متخفية وراءها لا يتم الكشف عنها بشكل ظاهر، كما أن هدف النقد الثقافي الكشف عن الأنساق المضمرة وإبراز الكيفية التي تقوم بتمرير أنساقها المضمرة تحت أقنعة جمالية و بلاغية، فالأنساق مرتبطة بكل المضمرات غير المكشوفة أمام القارئ مباشرة. فأصبح بذلك التحليل الثقافي ضرورة ملحة تفرض نفسها حاليا، ذلك لأن النقد الثقافي يدرس الأدب الفني والجمالي باعتباره ظواهرا ثقافية مضمرة يعمل عل الكشف عنها وإظهار أنساقها المختلفة، بما أن الرواية أكثر الأجناس الأدبية تعبيرا عن تمثلات الواقع وهمومه، إضافة إلى كونها" أقدر على التشكل والتحول ليس باعتبارها ممارسة إبداعية و حسب بل كذلك باعتبار علاقتها بالمتخيل وقدرتها على استبطان القيم والتصورات والرموز التي يمكن أن تكون مركز الرؤية الجديدة للعالم (....)تواكب التحولات الاجتماعية وتتفاعل معها[8] و يمكن لنا اتخاذ رواية " كتيبة الخراب لعبد الكريم جويطي كنموذج للدراسة، والكشف عن الأنساق المضمرة المختبئة تحت عباءة الجمالي باعتبار أن تجربة الكتابة عند عبد الكريم جويطي من خلال رواية "كتيبة الخراب"بنيت على وعي عميق بالاختيارات السردية العديدة التي مزجها في روايته، جاعلا من الفضاء المكاني" بني ملال بؤرة لجميع سرودها ابتداء ونهاية، باعتبارها رواية المدينة بامتياز وخروجها عن المألوف بالاحتفال بالمدينة في الرواية ،التركيز على مجموعة من الأسئلة العميقة التي تطرحها أمامنا:هل لدينا رواية للمدينة؟ هل عبر جوطي عن مدينة الواقع؟ أم المدينة السردية؟ كيف بنى سرودها المتعددة انطلاقا منها؟ كيف تصبح المدينة رواية؟ ما أنساقها الثقافية والاجتماعية المضمرة؟

بالاعتماد على الوعي بالكتابة المبدعة لدى الجوطي المنفتحة على السرد المتحول والمتحرك المبتعد عن الثبات والجمود الممتزج بالقدرة الهائلة على استضافة محكيات

[7]- عبد الله الغدامي، مرجع سابق ص 76

[8]- ادريس الخضراوي، تخيل التاريخ وثقافة الذاكرة افريقيا الشرق ،2017 ، ط 1 ص72

متعددة وخطابات مختلفة،والإصغاء لأعماق الإنسان المدني وتشظياته المتعددة داخل المدينة الفاقدة لهويتها، وتعدد مشاكلها وادعاء تحضرها وتشتت الإنسان داخلها.

رمزية الشجرة وقيمة الحب في رواية كتيبة الخراب:

افتتح السارد الرواية بالحديث عن هوية شجرة ،وهي بمثابة ثمرة حب كبير جمعت بين شخصين فكتب لهما الاتحاد والزواج في بني ملال ، بعد رحلة كتب للقدر أن يجمعهما بها ، هروبا من واقع قاسي عاش فيه كل منهما قبل الزواج يقول السارد:" لأني أريد الهروب وبأي ثمن، قمت بالإجراءات اللازمة بسرعة ، وفي الغد كنت من بين المسافرين، كان روبي أيضا ضمن أفراد الرحلة ..في بني ملال التقيت نظراتنا.. وفي تمام الرابعة قررنا إنهاء علاقتنا بالرحلة واالبقاء بعض الوقت في بني ملال. شيء خارق حدث بيننا ، يستحيل وصفه وتحليله....بدأنا نهيم في الجنان المحيطة بالجنان المحيطة بالمدينة، وفي الدروب الجبلية يحكي أحدنا للآخر مأساته الشخصية ونتلمس في حواشي الحكايات الحزينة أن ظلمة الحياة ليست مطبقة ولا نهائية. وفي تربة اليأس والقنوط بدأت تدب بيننا أصرة ثقة متجددة في الحياة والحب. ما وقع بيننا بعد ذلك كان هبة هذه المدينة الصغيرة، الرائعة. عدنا بعد شهر خفيفين مرحين وواثقين من نفسينا إلى كوبنهاغن...تزوجنا ورزقنا بولدين.. عشنا حياة هادئة كنا نحمل فيها ذاكرة هذا المكان الرحيم في قلبينا حتى داهم روبي...داء السرطان"[9]

كتب لهما الفراق من جديد لتكون الشجرة بمثابة خيط وصل بمكان اللقاء الأول، فكانت وصية الزوج بإهداء شجرة تغرس في مدينته يقول السارد: " في أحد الصباحات قال إنه حلم بالمدينة الصغيرة والبعيدة وهي تعاتبه بشدة على نسيانه وعده بغرس شجرة فيها . ثم قال بأن أجمل تكريم يمكن أن يقدمه الإنسان لمكان ما أنقذه هو أن يغرس فيه شجرة (....)فقد استشرت عالما في شأن أي من الأشجار قادرة على التكيف مع الطقس المتوسطي وسارعت بحملها إلى هنا، هدية منا إلى المدينة الصغيرة وأهلها"[10]،

استمر السرد سابرا أغوار حكاية الشجرة المنقولة من بلاد الدانمارك إلى بني ملال لتمجد علاقة حب وطيدة جمعت الزوجين ،وكرمز يحفظ هوية هذه العلاقة التي تشهد على حبهما لكن سرعان ما يخيب أفق توقع السيدة يقول السارد على لسان من استلم الهدية :"إن المدينة الصغيرة والرائعة التي عرفتها قد كبرت وصارت قبيحة ومشوهة، وأن

[9]- عبد الكريم جوطي، كتيبة الخراب، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ص13

[10]- كتيبة الخراب، المصدرالسابق، ص 14

العقيدة المتأصلة التي وحدت الرؤساء المتعاقبين هي كراهة الأشجار وابتداع كل الوسائل والمسببات لاجتثاثها"[11]

كشف الكاتب من خلال هذا المحكي عن أنساق ثقافية تمثلت في الهوية الثقافية المركبة لعلاقة بين شخصين كتب لهما اللقاء في مدينة بني ملال، فشكلت الشجرة رمزا للحب والتعلق بالوطن مكان اللقاء لأول" بني ملال"، متعمقا من خلاله في مجموعة من الأسئلة الاستنكارية بطريقة سخرية جسدت هوية المدينة وما تعانيه يقول السارد :" أي معنى يمكن أن تضيفه لمدينة يشكو فيها نافذو الصبر من أصحاب الجنان والمقاولين عجز العلم عن ابتكار وسيلة فعالة.... لقتل الأشجار قتلا سريعا وسريا؟ قطعوا عنها الماء، جربوا جافيل ومسحوق الغسيل وزيت السيارات والجير والحرائق الليلية وجردوها من لحائها.لكن احتضارها يدوم طويلا وغضبهم أيضا، لمدينة صارت ترى في كل شجرة بقة سكنية ضائعة؟ ؟ "[12]

يشير الكاتب ضمنيا من خلال هذا المحكي عن ما تعانيه المدينة من إهمال المساحات الخضراء،وتمزق الهوية الثقافية للمدينة التي لا تقدم شيئا لسكانها ، كما يطرح أسئلة عميقة عن المسؤول عن الاندثار و اللامبالاة بالأشجار و الإصرار على قتلها بشتى أنواع الأدوات ، وجشع العقار الذي أصبح يحيط بالمدينة من كل جانب، ويحرص على قتل الأشجار وذبولها .

يقف القارئ حائرا كيف لشجرة تنقل من تربة خاصة من مدينة الدانمارك إلى مدينة بني ملال قاسية المناخ أن تعيش فيه كيف يكون حالها المضرب يقول السارد:"هل تعبر الشجرة الآن نفس مشاعر الضياع والحزن القاتل التي تعبر إنسانا مثلها ألقي به في مكان غريب؟ أم أنها مازالت صغيرة ولا تقدر كالأطفال فداحة المصائر؟ كم سيلزمها من التحمل والصبر والصلابة؟ لم تكن لدي أي فكرة محددة عما ستؤول إليه، قلت في نفسي: ستلزمها معجزة لتبقى حية. أنا لا أثق في الطبيعة هنا ولا في قدرتها على أن تمنح ولو بقدر ضئيل من الرقة والحنان، لقد ملأ صدرها هي أيضا غلا وقسوة"[13]

هوية المدينة وتشريح بنية المؤسسات الإدارية في رواية " كتيبة الخراب"

يكشف الكاتب من خلال روايته عن ما تخفيه المدينة التي أصبحت تتظاهر بمظاهر التمدن الحديثة، لكنها تخفي تناقضات وأسرارا كثيرة، مدينة تضاهي الدواوير من شدة

[11]- المصدر نفسه والصفحة نفسها

[12]- المصدر نفسه ص17

[13]- كتيبة الخراب، المصدر السابق

الإهمال والضياع رغم التظاهر بمدنيتها وتحضرها متأثرا بها ومبرزا حالته المطربة ، وهو يجول شوارعها ويتأمل هواجسها وليلها ونهارها يقول السارد:" انحدر نحو شارع محمد الخامس محملا بفيض من الوحل والحصى لم يعد جبل جردته الفؤوس والحرائق والإهمال من أشجاره بقادر على مسكنها، فاستحال الشارع الرئيسي، حيث البنوك والمقاهي والمقشدات ووكلات الأسفار والإدارات العمومية، إلى مسرب متعثر يضاهي مسارب الدواوير الأشد ضياعا وإهمالا. وبات على المؤسسة أن تفعل شيئا ، ترسل بعض العمال العجزة بجرافات يدوية ومكنسات من الدوم لا تفلح حتى في تنظيف سجادة صلاة"[14]

عبر الكاتب أيضا من خلال "كتيبة الخراب" عن قساوة المدينة وما بها من تناقضات عميقة وذاته المتشظية بها يقول السارد: " يومي في المدينة فضيع، قاتل وعنكبوتي خصوصا حين تفعل ما يستغرقك كلية ويجعلك في منأى عن المتابعة المعذبة... ولا شيء من حولك يحدث، المدينة تهرب من الحقيقة ما وتتضخم عمرانيا بصمت بما تلفظه أراضي البور في ديمومة الجفاف من مناطق .... تختفي تدريجيا كل مظاهر التمدن.. دار الشباب الوحيدة مختنقة وكئيبة . وأصحاب داري السينما تركوهما لخراب مغولي أملا في أن يسقطا على من فيهما ذات يوم فيحولوهما إلى قيصاريات تجارية أو مطاعم شعبية مزهرة ، مقرات الأحزاب مغلقة والمناضلون يتوخون الحيطة والحذر من أعداء وهميين "[15]

لم تنحصر الهوية المتشظية على الشجرة لكنها تجسدت في كينونة الذات " البطل" وهويتها التي فقدتها داخل الدروب المظلمة لمدينة التناقضات يقول السارد: " لم أكن أحس طيلة المشد المذل بأي نزاع داخلي بين ما أقوم به خضوعا لأمر مزر بالكرامة الشخصية، والرفض الذي علي إبداؤه حفاظا عليها. لأنني ببساطة لم أكن أنا هو أنا داخل مكتب الرئيس. كنت قناعا إداريا صنعته الدولة عبر سنوات من التخويف والحرمان والإذلال، وأربع سنوات كاملة من المعاناة البطالة. كنت رقم تأجير ووضعية إدارية ودورا، وخضعت للتراتبية التي تقضي بخضوع المرؤوس لمشيئة رئيسه المطلقة، لكن عما كنت أبحث إذن في عيون المحيطين به؟ حتما ليس عين الشفقة ومواساة أو احتجاج أو تعاطف"[16]

---

[14]- كتيبة الخراب، ص 28

[15]- كتيبة الخراب، ص 56

[16]- كتيبة الخراب، المصدر السابق، ص20

لقد كشف السارد من خلال هذا المقطع السردي عن فقدان الشخصية لأداتها وهويتها والتعبير عن ذاتها، أمام سلطة الرئيس، مما يؤكد على وجود خلل للهوية الذاتية للبطل السارد، كما طرح السارد من خلال ذلك مجموعة من الأسئلة الهوياتية التي تكشف عن الوجه الأخر للإنسان الذي يحرص على إخفائه عن الجميع يقول السارد"أخرجت من جيبي الظرف وتمنعت مرة أخرى في قولة أوسكار وايلدا:" لا يكون الإنسان هو نفسه حين يكون صادقا، أعطوه قناعا وسيقول الحقيقية" (...)ولكن لماذا لا يستطيع الإنسان قول الحقيقية إلا وهو مختف وراء قناع؟ ما الذي يمنع الإنسان من قول الحقيقة وهو في عريه الإنساني؟ ومتى يكون الإنسان هوهو ومتى يكون قناعا؟ ما هي الحدود الفاصلة في الحياة بين الصدق والقناع؟ وإن جاز لي أن أبدي رأي موظف بسيط في الدرك الأسفل من مؤسسة سوريالية، فإن.(...) لا لن أفعل، فمن أكون أنا لأناقش الأفكار الملغزة التي يلقي بها الكتاب والفلاسفة في وجه العالم. موظف بائس في مؤسسة بائسة في مدينة أشد بؤسا ضفدعة جيف "[17]

اعتمادا على تقنية المونولوج الداخلي في الرواية عبر السارد عن تشظي هويته الذاتية وفقدانه للثقة في أي تغير يمكن أن يشمل حياته ،يقول السارد:" منذ أن وطأت رجلاي المؤسسة قلت بداخلي كل صلة بفلسفة تحسين الوضعية الإدارية التي تجعل الآخرين مفعمين بشهوة حرب اتجاه كل ما يحوم أمامهم، متوترين ،ومتحفزين، لأن هناك شيئا ما فاته(....)بقدر ما كنت أحضن الوضعية التي اخترتها لنفسي: نكرة إدارية مهملة لا ترى في حرب المهزومين ضد بعضهم إلا كلبية مقرفة"[18]

كما تطرق الكاتب في روايته " كتيبة الخراب" إلى تشريح دقيق لبنية المؤسسات المغربية بنقد لاذع يكشف عن أنساق ثقافية مضمرة غير مصرحة يقول ،السارد:" نحن نسير نحو سيارتها لأخذ الشجرة قالت بأنها وعملت بطريقة فظة في الولاية، تركوها تنتظر عدة ساعات "[19]،

هنا نلتقط من خلال ذلك بيروقراطية الإدارة وما يعانيه المواطن حين يدير قضاء أغراضه، وهي إشارة مهمة للكاتب تجسد واقع المؤسسات وصراع الإنسان مع الوقت للحصول على سعيه داخل مدينته يقول السارد:"اكتشفت بغير قليل من الدهشة،شيئا فشيئا، خفة عباد الله الموظفين الذين حشروا مثلك في المؤسسة، كم هم متحررون من

[17]- المصدر السابق، ص 18، 19

[18] -المصدر السابق، ص 20

[19]- المصدر السابق، ص15

عذابات تبكيت الضمير، يوقعون محضر الدخول ويروحون ليتدبروا شؤونهم أو ينتشروا في المقاهي ثم يعودون قبل الخروج لتوقيع المحضر"[20].

حاول الجويطي من خلال روايته " كتيبة الخراب" تشريح بنية المدينة عامة بجميع مؤسساتها الإدارية والسياسية والاجتماعية مركزا على مفهوم التمدن، مؤسسا داخلها محكيات متعددة تنبعث من داخلها أفق تخيلي ممتع تتقاطع فيه كل المحكيات، محكي المدينة البائسة بمحكيات شخصياتها المتشظية التي تنطلق من الواقع الكائن وتتطلع إلى الممكن لتجاوزه، يقول السارد:" قيل في المقاهي إن حافلة قادمة من مراكش ألقيت بهم في مدخل المدينة (....)وإن مؤتمرا كبيرا سيعقد هناك ويجب الحرص على تقديم صورة لائقة عن البلد وهو في طور التقدم والازدهار، وذلك بنقل النفايات البشرية المقززة إلى أمكنة أخرى. وكما يحدث دائما، سيدرعون أرض غربتهم، عارضين عاهاتهم وأعضاءهم السرية، منهكين في تأملات غامضة، ثم سيختفون واحدا واحدا... هل غادرو سيرا على الأقدام أم فوق شاحنات أم حافلات حنونة ومتفهمة؟ أم أن المشيئة طوت لهم الأرض، وبسطت لهم جناح أوبة خاطفة؟ "[21]

كشف الكاتب بطريقة ساخرة مضمرة عن أنساق ثقافية تتمثل في دور المؤتمرات السخيف التي تتظاهر في كل مرة بتقديم مصالح متعددة للمجتمع والعمل على ازدهاره ورقيه، وخدمة المصالح العامة للمواطنين ثم يختفون لحظة دون أن تعرف ما قدموه وناقشوه ،وما النتائج والحلول التي خرجوا بها من خلال تلك المؤتمرات.

كما وصف الكاتب حال جميع الموظفين في الإدارة ،ووقف بعين مترقبة عالمهم الخفي بتشريح البنية النفسية العميقة للموظف ليظهر للقارئ طبيعة العمل وخفاياه داخل المؤسسات الإدارية ،و النفاق الذي يعتري الموظفين الذين لا يقومون بواجباتهم على أكمل وجه.

بقول السارد:" في الأيام الأولى بالمؤسسة تعرفت على نفسي في الموظفين الذين سبقوني إل هنا منذ أعوام، وقرأت سيرتي الإدارية في سيرهم، والطريق الطويل والمريع الذي علي أن أقطعه . تتغير الحكومات والمخططات والرؤساء والمدراء وفلسفات المراحل والتعليمات والشعارات والأثاث ولون الأوراق ونبقى نحن ثابتين نلعق فراغ المكاتب ونحصي الأيام في انتظار أخر الشهر....رأيت في الموظفات الممتقعات بعض حروف جمال ولى وأنوثة أهيل

[20]- المصدر السابق، ص 50

[21]- المصدر السابق ، ص 30

عليها غبار المكاتب. ووجوههن مليئة بمكابدات وخذلان حروب لا يحصي عددها إلا الله،ورأيت موظفين شابوا قبل الأوان ،وتقرحت جفونهم وأهدابهم الفراغ المكرر...يتلهون فقط بالتعمق في تفاصيل الأمراض العديدة التي غنموها من مكاتبهم: الروماتيزم، ألم المفاصل، السهو، فقدان الذاكرة، واضطرابات القلب والنوم، فقدان الشهية"[22]

لم يكتف الكاتب في الوقوف على هشاشة المؤسسات الإدارية والسياسية والثقافية ؛بل تعداها إلى تصنيف أنواع الموظفين في المؤسسات بتدقيق لا مثيل له ،يقول السارد: " اتفقت مع الحلبي على تصنيف الموظفين إلى ثلاثة أصناف: البيوميون، نسبة إلى عثمان بيومي بطل رواية نجيب محفوظ" حضرة المحترم" ، وأولئك الذين يجعلون من الترقي وتسلق الدرجات مهمة مقدسة نذروا أنفسهم للسير في طريقها الصعب زاهدين في كل شيء، ومضحين بكل شيء في سبيل البريق الذي يتلألأ في الأفق أمامهم، تجدهم في كل مكان وزمان بالإدارة، ينتظرون أي إشارة للقيام بإي خدمة يسوون أنوفهم بالأرض أمام الرؤساء..يجعلون من رؤوسهم عبيدا في منجم للسخرية. القلقون بامتياز ، الخاضعون والمتسلطون في الآن نفسه. الذين يجعلون من حياتهم الخاصة امتداد لهواجس المكاتب: لا يتعبون، ولا يمرضون، ولا يتذمرون ولا يملون، يأخذون فائض العمل لينجزوه في البيت ،وحين لا يكون هناك عمل يخلقونه يعملون بالإدارة خارج أوقات العمل ،وفي أيام العطل ليروا الرؤساء كيف أنهم نذروا أنفسهم كلية لخدمتهم وخدمة الدولة.... ثم هناك الأكاكيفتشون، نسبة إلى موظف غوغول أكاكي أكاكيفتش فبي رواية" المعطف"،أولئك الذين يقنعون بالوضع الذي جعلتهم فيه الصدف الإدارية. ولا يثير وجودهم أحد ولا ينافسون أحد. حروبهم الحقيقية يخوضونها خارج أسوار الإدارة من أجل تحصيل أمان ما في بلد تطحنه أزمات متتالية. إنهم صورة البؤس العام في سعيه الخرافي للحصول على مسكن وأثاث وحاجيات للأطفال"[23].

يقف القارئ على التصنيف العميق الذي قام به الكاتب لأنواع الموظفين وصفاتهم، هواجسهم وتطلعاتهم مستعيرا بطريقة ذكية وعين مترقبة ثاقبة أبطالا روائية متميزة داخل روايات عالمية، فقدم مثال عن كل صنف من هذه الأصناف مقتبسا أبطال روايات متباينة، مما يدل على براعة الكاتب واستلامه لتقنيات الكتابة الواعية والمتسلحة بثقافة أدبية عميقة . نجد الكاتب بطريقة مضرة يميل إلى فئة الأكاكيفتشيون الذين

[22] -المصدر السابق ، ص 128

[23]- المصدر السابق، ص129، 130

يعبرون جميع الصعاب ومتدبرين اقتصاديا ليحققوا و لو أبسط أمنياتهم حياة عيش كريمة، يقول السارد:" الأكاكيفتشيون ليسوا بخلاء كما يمكن أن يفهم الأمر، إنهم مقاومون وعباقرة في التدبير الاقتصادي، يرفعون التحدي عاليا في وجه الدولة، فالبراز الذي تدفعه لهم يتمكنون من إنجاز مسار مالي ملحمي يذهل الدولة نفسها ويميتها غيظا، إذ بعد سنوات تراهم بمسكن محترم وأولاد بشهادات عليا وحتى بسيارة صغيرة ولا تفهم أنت ولا يفهمون هم ولا تفهم حتى الدولة بخبرائها المتخمين بالشواهد والأجور العليا بأي تعويذة شيطانية تمكنوا من ذلك"[24]

كما نجد السارد يقف على واقعة سقوط أحد جدران معمل ومقتل أشخاص ، وبلا أدلة تصرف مع هذه الواقعة ، في اجتماعات لا طائلة منها، مما يبرز عدم وجود روح للمسؤولية والتعامل بنجاح مع الوقائع يقول السارد:" كيف يسقط جدار إثر عاصفة صمدت فيها براريك الصفيح؟ وخلص البيان إلى القول:" كيف يؤتمن من عجز على بناء حائط غير آيل للسقوط على بناء مستقبل مدينة"[25]، من أغرب وأسخف التقارير التي جاءت ردا وتفسيرا على هذه الواقعة الأليمة التي ذهب فيها سبعة شخوص وجرحى آخرين ، يقول السارد : " في اليوم الموالي صدر بيان "وقعه غيورون على المدينة" يرد بعنف على بيان المعارضة، يبدأ" الآن وقد حصحص الحق، وقالت الجهات المختصة الكلمة الفصل في الحادثة،التي أودت بحياة مجموعة من المؤمنين الصابرين لقضاء الله وقدره، فإن الذين تعدوا الصيد في الماء العكر وافتعال الأحداث والمواقف لتصدر الواجهة، أبوا مرة أخرى إلا أن يعيدوا أسطوانتهم المشروخة في قذف المؤسسات و المسؤولين والتشكيك في مصداقيتهم" . بعد أن عدد البيان مثالب المعارضة كالانتهازية والديماغوجية، خلص إلى اللذين يشككون قدرة الريح على إسقاط الجدار فإنما يشككون في قدرة الله ويطعنون في القرآن الذي جاء في" أما عاد فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية" " إن بطش ربك لشديدّ"[26]

قدم لنا الكاتب من خلال هذه الواقعة أنساق ثقافية ، تتمثل في تقديم تشريح دقيق لطريقة تعامل المؤسسات الإدارية، مع مثل هذه الوقائع، أقل ما يمكن أن نصفها به التهرب من المسؤولية الحقيقية التي تقع على من قام ببناء مغشوش انهار بعد بنائه بمدة قصيرة، التعامل مع ذلك بسذاجة وإيهام للآخرين بأنه قدر من الله ، ولا وجود لمسؤول

[24]- المصدر السابق ص 130

[25]- المصدر السابق، ص 73

[26]- المصدر السابق، ص 74

عن الواقعة من أجل التهرب وإخفاء الحقيقة،وما أكثر هذه الوقائع التي يرجع فيها المسؤولون أسباب ذلك للقدر والمشيئة :

يقول السارد موضحا حقيقة الاجتماعات: "الاجتماعات صناعة إدارية لا تنضب، ومجالا يبرز فيه الرؤساء مواهبهم في تعذيب المرؤوسين وفي الإيحاء بأن العجلة تتقدم ومقاومة الهباء الذي يطحن قلب الإدارة ومفاصلها، اجتماعات تلد اجتماعات وتتفرع إلى لجان واللجان إلى لجان تقبر فيها أشد النوايا حسنا ونجاعة. مساحات زمنية من الجدية الزائفة، والمهاترات والتثاؤب والكلام لمجرد إثبات الحضور"[27]

ثنائية الأنا والأخر من خلال رواية "كتيبة الخراب

تتمثل هذه الثنائية من خلال الرواية كتيبة الخراب" في تطلع أحد شخصيات الروائية المدعو "بميمون" "الأنا" صاحب محل للحلاقة للهجرة نحو الغرب "الأخر" هروبا من الواقع البائس ، باعتبار الآخر هو مصدر السعادة الوحيدة التي يطمح لتحقيقها وحل لمشاكله في الحياة:

يقول السارد متحدثا عن ميمون: أغلق الحانوت وفي الطريق حدثنا عن المليونين ريال اللذين في ذمته لصاحبة الحانوت، وأنها ستجبره على الإفراغ بحكم قضائي إذا لم يسدد لها ثمن شهور الكراء المتراكمة، لذا و بعد تفكير عميق، قرر أن يهاجر إلى إسبانيا.....

ولكن كيف؟ تساءل الحلبي: لن يعطوك الفيزا

- ومن قال لك بأني سأذهب إلى السفارة

ثم بعد صمت طويل قال لنا بأن سر دعوته لنا هذا اليوم، يكمن في أنه سيرينا آلة صنعها لعبور البحر؟ تساءلنا ونحن ندافع دهشة عظيمة.. ولأني تعودت على الأفكار الغريبة التي تعبر رأس ميمون من حين لأخر، فقد لذت بجدية مصطنعة "[28]، يترقب القارئ مشدودا ومندهشا إلى فكرة ميمون بصنع آلة عن طريقها يتمكن من السفر والهجرة يقول السارد: "ميمون الواقف بهمة جنرال قرب دراجة هوائية تناثرت حولها قضبان حديدية وألواح خشبية وبراغ وصحون مسننة وسلسلة ومجدافان صغيران وبوصلة ومنظار وكتاب مدرسي للجغرافية ومجلة عربية وملقاط ومطرقة، بأسى واضح ... وبعد أن اطمأن إلى انتباهنا بدأت شروحاته المليئة باستطرادات متعبة. انطلق بصوت هادئ وخافت سرعان ما

[27]- المصدر السابق، ص 74

[28]- المصدر السابق، ص 37

تسارع: سيتم تثبيت الدراجة بالقضبان الحديدية بين لوحتين خشبيتين سميكين، سيلحم أربعة قضبان حديدية متساوية وقصيرة بدقة في مقدمة ومؤخرة الدراجة....هكذا ستطفو الدراجة فوق الماء"[29]

لقد أثار انتباه أصدقائه من هذه الدراجة الهوائية التي تستطيع اقتحام أمواج البحر ومواجهتها فتمكنه من السفر عبر البحر لوجهته يقول:" أن مسألة التوازن هنا حاسمة نظرا لاضطراب أمواج البحر. لذلك كلما كان اللوحتان بعيدين عن الدراجة كلما حافظت على توازنها.. إلى جانب الدولاب المسنن الذي يدير العجلتين، سيضيف دولابا أخر خلف هيكل الدراجة، يدور تبعا لحركة مرور العجلة الخلفية ويرتبط به عن طريق قضيبين صغيرين، هذا الصحن الصغير هو الذي يتكلف بتحريك المجدافين المثبتين في القضيب يتخلل الصحن ويدور بدوراته"[30]

بعد أن جاء الموعد الذي سيقوم بالتجربة والسفر إلى طنجة من أجل العبور منها إلى إسبانيا، حدث ما توقعه أصدقاه في هذه المغامرة الجنونية التي سيطرت عليه يقول:" بعد نصف ساعة تقريبا كانت الآلة جازة للعبور، آنذاك وقف وصوب نحوها نظرة عميقة. وكان ممتقعا من الخوف وإكليل من العرق يتلألأ في جبهته. وبادلناه نظرة ممتلئة بالإشفاق على ما سيقع للتو. كانت ألته من البدائية والارتجال بحيث أنها أبقتنا في بحبوحة يقين صلد بأنه لن ينجح أبدا. بعد تردد قاس اتكل على الله. دفع الآلة دفعا إلى الماء لكنها لم تتململ شبرا واحدا(....)كان يبدو أن جسده غير قادر على تحريك الخشبتين في منحدر أحرش(...)بعد محاولات يائسة بدد فيها كل قواه سدى جلس دون أن ينظر إلينا ليسترد أنفاسه وهو يعرف بأن تجربة بدأت سيئة بشكل لا يحتمل "[31]

يحمل محكي ميمون أنساقا ثقافية مضمرة عديدة غير مصرحة تتمثل في كون الكاتب يشير بطريقة ذكية على أن كلا منا يحمل همه وإيمانه بوهم يطارده الذي يسيطر عليه، لكننا لا نرى نضرة الآخرين لنا على اعتبار أن ما نفكر فيه وما نريده هو الصواب الوحيد، ولعل هذا الوهم هو وهم جيل من الشباب الذين يطمحون لتجاوز الواقع واستشراف المستقبل المجهول ،حلم الهجرة للغرب، عبر عنها الكاتب بطريقة ساخرة لكنها تعبر عن حقيقة مرة في الواقع.

---

[29]- المصدر السابق، ص 39

[30]- المصدر السابق، ص 39

[31]- المصدر السابق، ص 115

كما عمل الكاتب على التنقيب على تناقضات الإنسان ونظرته للآخر ،والبحث دائما على نواقص الآخر وسط عالم تسيطر عليه الرقابة من كل صوب واتجاه مما يحمل في ثناياه أنساق ثقافية مضمرة غير مصرحة تعكس اندثار الإنسان في مدينته ،وسيطرة النفاق والتكلف الاجتماعي على الإنسان، الذي ينظر لنفسه في مرآة الآخر منذ غابر الأزمان.

يقول السارد: " لن نكون ذواتنا لأننا ضائعون، ومنذ قرون بين نقائض عاتية، سيبة مخزن، سهل جبل، مدينة وبادية، كبرياء ومذلة، وفرة وندرة(...)حتى جعل منا عجزنا اليومي عن الإمساك بالنقائض التي تميزها شخصيات ارتيابية بعمق، نبحث عن المكيدة داخل النصيحة التي تسدى لنا، ونرى اليد الغادر خلف يد الصداقة التي تمتد نحونا. وندعو الأحزان لتمسك بخصرنا في هيجان أفراحنا، نكرم ونعطي حتى السفاهة ونبخل ونكره ونمتنع حتى الوضاعة. قلت من نصبك متحدثا باسم المغاربة؟ قال : الحزن"[32]

يكشف القارئ عن أنساق ثقافية مضرة تاريخية تتمثل في كون حاضر المغاربة مرهون بماضيه ، وبتضاريسه المختلفة، فالتناقضات التي يعيشها الإنسان داخل موطنه ما هو إلا انعكاس لجغرافيته من جبال وهضاب وسهول كل منطقة تؤثر على سكانها ، الأصل في المجتمع المغربي هو البداوة ليس التمدن لكن مع تراكم الهجرات المتعددة من القرية إلى المدينة وتوسع العمران ، اختلطت الأمور فما أصبحنا ببساطة البدوي ولا متمدنون، صرنا هجان بين هذا وذلك.

لم يقتصر موضوع الهجرة إلى الغرب، على فئة الشباب المتمثلة في ميمون الحلاق لكنها شملت فئات مجتمعية متعددة من وزير وشيخ مما يدل على أن المجتمع بأسره يتطلع للهروب من واقع واستشراف مستقبل أخر عند الغرب يقول السارد متحدثا عن رجوع فقيه صالح يريد بناء مسجد

يقول السارد:" جمع الفقيه يوما أمره وفاتح الرجل الصالح في شأن شبان الدواوير الذين أذلتهم البطالة فلا تلتئم أيديهم على شروى نقير(...)وقال للفقيه بأنه لن يستطيع أبد أن يرفض له بالذات طلبا. ودعاه لإعداد لائحة لهؤلاء بتنسيق مع بوزكري. رغم أن الفقيه أفسد حيوية وفتوة الائحة بتصدرها مدعيا أنهم هناك سيحتاجون لمن يسهر على دينهم وأخلاقهم،رغم أن المعلمين وجدا لمهما مكانا أيضا وموظفين من الجماعة القروية والكاتب العام للجماعة نفسه، وعشر فتيات وامرأة، ..كان قد أقسم بأن لا يرد للفقيه بالذات طلبا. وأجرى ولأيام مكالمات هاتفية مرهقة وطويلة مع وزير الشغل الهولندي

[32]- المصدر السابق، ص 171

وعمدة أمستردام وبعض البرلمانين وسفير هولندا في المغرب، وتمكن في الأخير من أن يقنعهم جميعا بتوفير كل الشروط الإدارية لمنح كل هذا الجمهور الغفير عقود عمل"[33].

بعد أن جمع أموالا كثيرة من عند جميع من أراد الهجرة محاولة منهم تغيير واقعهم ، من بينهم ميمون الذي لم ييأس من فكرة الهجرة التي تطارده، لكن خاب مسعاه هذه المرة بعد أن استولى على أموالهم بذريعة مقيتة يقول السارد:" أخد الرجل الصالح الجمل وما حمل، اصطحب بوزكري معه إلى الرباط والحقيبة مليئة بالفلوس وجوازات السفر، وفي المقهى أوهمه بأن موظفا كبيرا في السفارة الهولندية سيأتي ليفحص معه الأوراق وجوازات وتكاليف التأشيرات ونظرا لحساسية الأمر فإنه يفضل بأن تتم الإجراءات بينهما وحدهما في إحدى الغرف بالفندق. دخل الرجل الصالح وبقي بوزكري ينتظره يوما كاملا في وقت الغروب ،تجرأ وسأل عنه الإرشادات فسلموه الحقيبة وقالوا له بأنه يقرئك السلام، ويقول لك أن مشكلة حدثت وهو مضطر لأخذ الأمانة ، ويتمنى لك عودة ميمونة إلى الدوار،ووجد بوزكري الأوراق كاملة والجوازات بدون تأشيرة"[34].

لم يقتصر موضوع الهجرة على ميمون وأفراد جماعية في الدوار فقد لحق أيضا، الفتاة ذات الأسماء العديدة ، بعد بحث طويل عنها ومعاناة فوجئ البطل برؤيتها أمامه، فتخلصت من أنانيتها لتحكي له قصتها التي لم يعرف عنها شيئا بعد صراع كبير في التعرف عليها والتعلق بها دون إعطائه فرصة للتقرب منها ،يقول السارد" أنا حزين، فردت بزفرة هائلة: وأنا كذلك ، سأهاجر بعد أسبوع، بقيت سنوات وأنا أنتظر لحظة الخلاص هذه، وحين جاءت أخذ شيء ما يعتصر قلبي...قالت ذات الأسماء العديدة بخجل رقيق ودون أن أطلب منها ذلك: اسمي الحقيقي سلوى القاسمي، أنا من الصويرة(...)أب سكير وفظ ،أم ماتت وهي تنزف لأن لا أحد فكر في مساعدتها. ..تعذبت كثيرا، لم أكن أنام ولا آكل حتى كدت أموت. في سنة البكالوريا اغتصبني أستاذ الرياضيات...طيلة شهور أذهب إلى البحر وأبكي حتى قررت ألا أبقى في هذا البلد. سأبيع جسدي لبعض الوقت حتى أجمع ثمن عقد العمل، وأهاجر إلى الخارج، هربت إلى مراكش ومنها إلى بني ملال(....)وألان وعقد العمل في يدي أحس بأنني ضائعة تماما، والطريق الذي حلمت به سنوات يتبدى لي هو الآخر بلا عزاء"[35]

---

[33]- المصدر السابق ص 166

[34]- المصدر السابق ، ص 198

[35]- المصدر السابق، ص 220

لقد كشف الكاتب من خلال هذه المحكيات المتعددة عن تطلع أغلب الشخصيات "أنا" إلى الهجرة إلى الغرب "الآخر" باعتبار كونه مركز السعادة وتحقيق الأمان وضمان عيش كريم في الحياة، وقد وفق الكاتب بطريقته الذكية وعبّر عن الواقع الراهن في قالب تخيلي ممتع تتقاطع في محكيات متعددة.

ختاما ،بعد ما قدمناه سلفا فقد حاولنا تتبع معظم الأنساق الثقافية "الخفية والدلالات الرمزية والمتخفية وراء سطور الرواية،"كتيبة الخراب"، و إزالة الستار والكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة التي تختفي وراء تقاطع المحكيات المتعددة، يتداخل فيها الواقع بالمتخيل، بسرد ممتع ومشوق، وذلك من خلال تطبيق مقولات النقد الثقافي كما أسس لها الناقد عبد الله الغذامي في كتبه العديدة، محاولة اقتفاء أثر هذه المقولات وتحليلها انطلاقا من الخطاب الروائي "من الهوية الثقافية للمدينة، هوية الشجرة، هوية الشخوص ،وقيما رمزية ودلالية للحب والتضحية، ثنائية الأنا التي تطمح للخلاص والهروب من الواقع والأخر المتمثل في الغرب الذي مثل الملاذ الوحيد لتحقيق الذات وتوفير العيش الكريم، إضافة إلى أننا حاولنا الكشف عن ما تخفيه المدينة من مظاهر التمدن المزيف، وضياعها بعد مقارنة بين ماضيها حاضرها ، إضافة إلى تشريح دقيق لبنية المدينة الإدارية والسياسية داخل رحلة شخوص يغيب منطق الممكن، والتغير في حياتها شخوص تخلى عنها خالقها وتركها تواجه مصيرها لوحدها كلما أرادت أن تتحول وتصير ما تريد توقفت رحلة بحثها فتغوص في ذاكرة المكان عبر رؤية سردية مصاحبة، يزرع الخراب أينما حلت وارتحلت فيتعطل الزمان والمكان.

وما هذا المقال سوى محاولة تطبيقية لمفاهيم النقد الثقافي ومقولاته على الأدب من خلال رواية" كتيبة الخراب"، وقد أسعفتنا الرواية" كتيبة الخراب" للكشف عن مواطن خفية من خلال كاتبة متمرسة لكاتب بارع يستطيع تشريح بنية المدينة ووصفها ووصف بنيتها السياسية والإدارية والثقافية، بعين ترقبية واصفة أدق التفاصيل المدينة، وطرقها محلاتها، مناخها، موظفيها، تشخيص عميق لنفسية الموظفين، من خلال الهوية الثقافية للمدينة، هوية الفرد، هوية الشجرة ورمزيتها، هوية الأنا والآخر.